العربية الفصحى وخلافات الإعراب والتعلم

د. صلاح احمد الدوش
جامعة الخرطوم – كلية التربية[1]

أولاً: الخلاف في مسألة الإعراب:

١. مفهوم الإعراب وأهميته:

الإعراب ظاهرة من أهم ظواهر اللغة العربية المميزة لها. وهي ظاهرة لا تبعد أن تصنف ضمن عبقريات اللغة ووسائلها التي تتخذها أداة للكشف عن عناصرها والتعبير عن دقائق سماتها ، ثم الإيفاء بمتطلبات القول وإبعاده الدلالية والجمالية. والإعراب في الاصطلاح – كما يقول ابن هشام – : "اثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الاسم المتمكن والفعل المضارع"[2] ولغة: "الإبانة والإفصاح وهو : أن لا تلحن في الكلام"[3]. وإذا كانت كلمة "لحن" هذه قد مرت بمراحل عديدة في تطورها فان أوسع دلالاتها وأبقاها إلى يومنا هذا : الخطأ في النحو ، أي في ضبط أواخر الكلمات. وما من شك أن هذه الأواخر لها عظيم الأثر في الدلالة المعنوية للألفاظ ،

---

[1] منتدب حالياً إلى كلية المعلمين، حائل، المملكة العربية السعودية

[2] الشذور : ٣٤

[3] القاموس المحيط : ١٣٦/١

فان إبانة الحركة الإعرابية عن الوظيفة النحوية هي في ذات الوقت إبانة عن الوظيفة الدلالية ، مع الأخذ في الاعتبار طبيعة السياق الذي ترد فيه اللفظة ، ففي قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [1] ، وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2] وقوله عز وجل ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [3] ، وقوله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[4] . فجميع هذه الآيات الكريمة تستلزم الحركة الإعرابية في الكلمات "رسوله ، أرجلكم ، الله أو العلماء ، إبراهيم أو ربّه" لان إدراك وظائفها المعنوية مرتبط بادراك وظائفها النحوية – أعني عند غير ذوي التمييز – خاصة كلمة "أرجلكم" حيث لا تغني فيها ملابسات الكلام وسياق الجملة عن دور الحركة الإعرابية ، ومن هنا جاء اختلاف الحكم

---

[1] سورة التوبة : آية ٣.

[2] سورة المائدة : آية ٦.

[3] سورة فاطر : آية ٢٨.

[4] سورة البقرة: آية ٢٨.

الفقهي حولها نتيجة للاختلاف حول وظيفتها النحوية بسبب من الاختلاف في ضبط آخرها أي ؛ لامها.

٢. الإعراب لدى علماء العربية المتقدمين

ظاهرة الإعراب إحدى القضايا التي ألمّ بها العلماء المتقدمون ووقفوا عندها كاشفين عن علل هذه الظاهرة ووظائفها في اللغة ، ثم ظلت بعد إحدى قضايا اللغة الكبرى إلى يومنا هذا[1].

وتشير المصادر إلى أن الخليل بن احمد (ت ١٧٠ هـ تقريباً) هو أول من تكلّم في هذه المسألة[2]. ثم دار الجدل بين تلاميذه من بعده ؛ سيبويه والكسائي وغيرهم حول دلالة هذه الحركات الإعرابية على المعاني وعدم دلالتها ، فذهب جمهورهم إلى الرأي الأول ، وذهب آخرون إلى الرأي الثاني[3]. بيد أن هذه الآراء – على عظيم شأنها – لم يصلنا منها إلا نتفاً متفرقات قد بثّت في ثنايا بعض أمهات المصادر. وعلى أية حال فان هؤلاء العلماء ظلوا يمثلون رأيين متعارضين ؛ الأول يمثله الخليل وبعض تلامذته من أمثال قطرب (محمد بن المستنير ت ٢٠٦ هـ) ومن بعدهم ابن خلدون. أما الرأي الثاني فيمثله جمهور أهل العلم ، منهم ابن فارس ، والزجاجي ، وابن جني ، وغيرهم.

ولعل ما قال به قطرب يمثل خلاصة ما دار بين أنصار الرأي الأول ؛ حيث يقول: "وإنما أعربت العرب كلامها ، لان الاسم في حالة الوقف يلزمه السكون

---

[1] السامرائي : ١١٨ ، وانظر الظاهري : ١٥ ومواضع أخرى متفرقة منه.

[2] الكتاب لسيبويه : ٢-٣١.

[3] مهدي المخزومي : ٢٨٣.

للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً ، لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج فلما وصلوا وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقباً للإسكان ، ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن و لم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو البيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ، لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون ، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون ، وتذهب المهلة في كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الإسكان"[1] . و لم يقبل جمهور العلماء بهذا الرأي الذي أوجزه قطرب ، إذ يلغي الدلالة النحوية لهذه الحركات في الجملة واقتصر دورها في المعاقبة لحفظ نسق في السرعة يلائم الكلام. ولهذا ردوا عليه بقولهم : "لو كان كما زعم ، لجاز خفض الفاعل مرة ، ورفعه أخرى ونصبه ، وجاز نصب المضاف إليه ، لان القصد في هذا ، إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام ، وأي حركة أتى بها المتكلم أجزأته ، فهو مخيّر في ذلك ، وفي هذا فساد للكلام ، وخروج عن أوضاع العرب، وحكمة نظام كلامهم" [2] .

ونجد ابن خلدون يرى أن في الحركات الإعرابية جزءاً خارجاً عن البنية الدلالية للكلام ، ولذلك لا يرى بأساً من الاستعاضة عنها بأمور أخر تلائم عصره ، فهو يقول [3] : "ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصّها ، ولعلها تكون في أواخر الكلم على غير المنهاج الأول في لغة مضر".

---

[1] الايضاح: ٧٠ ، والأشباه والنظائر : ٧٩/١.

[2] الأشباه والنظائر: ٧٩/١

[3] المقدمة: ٣٠١/١

أما جمهور أهل العلم فقد وقفوا مؤيدين ظاهرة الإعراب ، معتبرين إياها إحدى صفات العربية الموغلة في القدم ، والتي لا غنى عنها في إيفاء متطلبات الكلام بالتعبير عن الفاعلية والمفعولية والإضافة .. الخ. ومن آرائهم في هذا الشأن ما يطالعنا من رأي الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق ، ت ٣٣٧ هـ) حيث يقول[1] : فان قال قائل: قد ذكر ت أن الإعراب داخل في الكلام ، فما الذي دعا إليه واحتيج إليه من اجله؟ فالجواب أن يقال : إن الأسماء لّما كانت تعتورها المعاني وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضاف إليها ، ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني ، بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني". ويضيف خاصية التوسع والتخصيص في الدلالات عن طريق ما تتيحه ظاهرة الإعراب من إمكانية التقديم والتأخير في الأسلوب وفي هذا يقول[2]: " وكذلك سائر المعاني ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ، ليتّسعوا في كلامهم ، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه وتكون الحركات دالة على المعاني". ومعلوم أن التقديم والتأخير من أصل أساليب اللغة العربية التي لا يستغني أسلوب عن انتهاجها ، لما لها من خاصية الإيجاز وتكثيف الدلالات والإيحاء بمقاصد الكلام ، وليس من سبيل إلى ذلك دون هذا الإعراب ، حيث لا يغني في ذلك ملابسات الكلام ولا ترتيب تميزت به جملة. ويقول ابن فارس[3]: " فأمّا الإعراب فبه تميّز المعاني ، ويوقف على أغراض المتكلمين ، وذلك أنّ قائلاً لو قال : (ما حسن زيد) غير معرب ، أو (ضرب

---

[1] الإيضاح: ٦٩.

[2] المصدر السابق: نفس الصفحة.

[3] الصاحبي: ١٩٠.

عمرو زيد) غير معرب ، لم يوقف على مراده . فإذا قال : ما أحسن زيداً ، أو ما أحسن زيد ، أو ما أحسن زيد؟ أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراد ، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها ، فهم يفرّقون بالحركات وغيرها بين المعاني". ويروى السيوطي[١] عن ابن فارس كذلك قوله في ذكر باب ما اختصت به العرب : "من العلوم الجليلة التي اختصّت بها الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما ميّز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ولا نعت من تأكيد ، وزعم الناس يتوقّف عن قبول أخبارهم أنّ الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو ، وهو كلام لا يعرج على مثله ، وإنما تشبّه القوم آنفاً بأهل الإسلام ، فاخذوا من كتب علمائنا ، وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك إلى قوم ذوي أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذي دين ينطق بها". ويقول ابن أبي طالب القيسي (٤٣٧ هـ)[٢] في بيان أهمية الإعراب لطالب علوم القرآن: "وأفضل ما لقارئ إليه محتاج معرفة إعرابه ، ولا وقوف على حركاته وسواكنه ، ليكون بذلك سالماً من اللحن فيه ، مستعيناً على إحكام اللفظ به ، مطلعاً على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات ، متفهّماً لما أراد الله به من عباده ، إذ بمعرفة حقائق الإعراب تعرف أكثر المعاني ، وينجلي الإشكال ، فتظهر الفوائد ويفهم الخطاب ، وتصح معرفة الحقيقة". ولذلك وجدنا

---

[1] المزهر: ٣٢٧/٢-٣٢٨.

[2] مشكل إعراب القرآن: ٦٣-٦٤.

"إن بعض العلماء كان يجعل من إعراب القرآن علماً ، ويعده من فروع علم التفسير لا النحو"[١].

٣. الإعراب في مذهب المحدثين

أما المحدثون فقد دار جدل واسع بينهم منذ مطلع العشرينات من القرن السابق ، شارك فيه شعراء وباحثون وكتاب من أمثال جبران خليل جبران ، وميخائيل نعيمة ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، والعقاد ، وإبراهيم مصطفى ، وسلامة موسى ، وأنيس فريحة ، وسعيد عقل ، واحمد أمين ، وإبراهيم أنيس ، وحفني ناصف ، وأنور الجندي ، ونفوسة زكريا ، وأبو عبد الرحمن الظاهري وغيرهم[٢]. وكانت آراؤهم في مجملها تصبّ في اتجاهين مختلفين ؛ أولهما : يهتم بظاهرة الإعراب في اللغة العربية ويعتبرها إحدى الخصائص المميزة لهذه اللغة . وبعضهم يدعو — لأسباب تعليمية — إلى تيسير النحو وإعادة النظر في هيكل النظام التقليدي للقواعد النحوية الأساسية بحيث تكون منطقية ، وهذه دعوى لا غبار عليها ، كما أنها ليست موضوع بحثنا هنا. وثانيهما : خرج بدعوته إلى إنكار الإعراب ، ووقف منه موقفاً رافضاً. فمن هؤلاء من دعا إلى تحرير اللغة منه ، وإفساح المجال لعامية الخطاب اليومي لتعبر عن حياتنا الثقافية والعلمية والاجتماعية. ومنهم من دعا إلى لغة متفصحة هجين تمزج بين العامية والفصحى تكون خلواً من الإعراب. وبعض اتخذ من الهجوم على ظاهرة الإعراب ذريعة لتحقيق أغراض لديه تستهدف الأمة الإسلامية والعربية بوجه

---

[1] حاجي خليفة ، كشف الظنون : ١/١٢١.

[2] الظاهري: ١٢

خاص في اعز ما لديها أي دينها وكيانها عن طريق تقويض لغتها التي هي إحدى دعائم وحدتها وسجل تراثها ، وقد وجدنا من الباحثين من وصف هذه الشريحة المتربصة بقوله[1]:"لقد انتهز المغرضون هذه الفرصة واخذوا يصيدون في الماء العكر ، ويدعون إلى استخدام العامية وهجر الفصحى أو خلطها بالعامية ، وهي دعوة حمل لواءها منذ فترة طويلة المعادون للإسلام ، وأهله ، فادعوا أن إعراب الفصحى أمر عسير التعلم ليصرفوا المسلمين عن منبع دينهم ، وعماد شريعتهم ، ودستور حياتهم ، وهو القرآن الكريم ، الذي انزله الله عز وجل بهذه العربية الفصحى". ويقول الأستاذ محمد المبارك[2] : "لقد كان من مظاهر هذه النزعات المنحرفة الدعوة إلى العامية ... والدعوة إلى العامية هي بطبيعة الحال دعوة إلى الإقليمية ... وقبول العامية من حيث المبدأ قبول لتعدد اللغات في الأقطار العربية لان العامية إذا قبلت فستنطلق هذه اللهجات العامية في طرق مختلفة في تطورها وتنتهي إلى ما انتهت إليه اللاتينية في فرنسا وايطاليا واسبانيا ، ولهذا السبب بالذات كان دعاة العامية في كل بلد عربي هم دعاة الإقليمية من الوجهة السياسية ... ومن اجل هذا ايضاً لقيت هذه الدعوة ترحيباً من الأجانب والمستشرقين ، فنشطوا في بحث اللهجات العامية وتدوينها ... لقد كان وراء هذه الدعوات دوافع لا تعود إلى اللغة نفسها بل إلى دوافع من وراء ذلك ومقاصد ابعد منها تتخذ من الأسباب اللغوية حجة تتستر وراءها" . وبيّن أن هذه الدعوات هي الأبعد شذوذاً وافتضاحاً لكل ذي نظر.

---

[1] عبد التواب: ٤١٦.

[2] المبارك: ٢٣٨-٢٣٩

نستطيع في هذا المقام أن نوجز أهم ما أدلى به هذا الفريق من آراء قبل أن نناقشها وقد تمثلت فيما يلي:

١- إن الإعراب ليس اصلاً في اللغة ، بدليل انه لم يجر به لسان العرب الفصحاء ، من جهة وخلو اللغات السامية منه من جهة أخرى ، وبدليل أن القرآن الكريم عندما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مضبوطاً بهذه الحركات الإعرابية.

٢- إن الحركات الإعرابية لا تؤدي وظيفة دلالية في الكلام وان الذي يؤدي هذه الوظيفة هو موقع الكلمة في الجملة ، وملابسات الكلام ، فتفقد هذه الحركات — من ثمّ — أهميتها ومبررات وجودها.

٣- إن الحركات الإعرابية لا تعدو مهمتها أن تكون لوصل الكلمات عند الإدراج أي للتخلص من التقاء الساكنين ، فلا تدل على فاعلية أو مفعولية أو إضافة أو غيره.

٤- لا تستطيع مناهج التعليم أن تحقق قدراً من الأهمية والإثارة بانتهاجها اللغة الفصيحة الملتزمة بحركات الإعراب . فسبيله إلى ذلك لغة البديهة الدراجة.

ذلك أهم ما أدلى به هذا الفريق . ونستطيع أن نلتمس هذه الآراء فيما كتبه الدكتور إبراهيم أنيس ، والدكتور احمد أمين ، وبعض المستشرقين. ولذلك أخذنا أنفسنا بالإشارة إلى هذه الآراء دون الاستقصاء لأصحابها وبشيء من الإيجاز والإلماح ، إذ المقام لا يتسع لغير ذلك.

ولعل أهم عمل تطرق لهذه القضية — حسب علمي — هو فصل كتبه الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (من أسرار اللغة) تحت عنوان (قصة الإعراب) ، بين فيه منهجه بقوله[١]: "ولسنا نهدف إلى التحوير أو التغيير في تلك الأصول العرابية ؛

---

[1] راجع صفحة: ٢١٩ وما بعدها.

كذلك لا نرمي بالبحث في نشأة الإعراب إلى استنباط خطة دراسة لها ، تيسرّ من أمرها على المتعلمين والناشئين ، بل كل الذي يعنينا هنا هو البحث العلمي في نشأة هذا الإعراب ، ونصيب العرب القدماء منه ، والصورة التي كان عليها في العصر الجاهلي ، وصدر الإسلام بين الفصحاء من أصحاب اللغة". وفيما يلي نورد بعض أقواله التي يمكن أن تلخص نظريته في هذا الجانب ثم نعلق عليها ، فهو يشير إلى أن "النحاة وجدوا في كل العصور من يهاجمهم ويسفه آرائهم ، ويشك في قواعدهم"[1]. ويردف "أما في عصرنا الحديث فقد ضاق كثير منا بهذا الإعراب ووجدنا المشقة والعنت في فهم علله وأسبابه فثاروا عليه ، ودعوا إلى تقويض أركانه والتخلص منه. ولا يكتفي الرواة بنسبة اللحن لعهود الأمويين بل يحدثوننا عن أمثلة منه في صدر الإسلام"[2]. ويقلل الدكتور أنيس من القيمة العلمية لتلك الروايات عن صدر الإسلام التي تشير إلى استنكار البعض الخطأ في الإعراب على أفواه آخرين فلا يلبث أن يقول [3] : "كيف نتصور أن ظاهرة الإعراب لا تترك في كل هذه البيئات أثرا ، ولا تخلف فيها ما يوحي بان الإعراب كان شائعاً على السنة الناس في العصور الإسلامية الأولى كما يحاول الرواة أن يفهمونا" وبدأ لابد من الإشارة إلى أن أولئك الذين هاجموا النحاة من أمثال ابن ولاد وأبي العلاء المعري وابن حزم[4] كان هجومهم منصباً على جوانب معينة من عمل النحاة و لم يكن هجوماً على النحاة متصلاً ولا على سائر أعمالهم. فهذا ابن مضاء الذي ألف كتاباً في نقض منهجهم في اتخاذ العلل يعود فيقرر

---

[1] المصدر السابق.

[2] نفس الصفحة.

[3] نفسه: ٢١٦.

[4] راجع بعض أخبارهم في كتاب (البحث اللغوي عند العرب) لأحمد مختار عمر : ٦١.

قائلاً[1]: "واني رأيت النحويين ... قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن ... فبلغوا من ذلك إلى الغاية التي راموا". بل أن الأمر لم يقف عند هذا ، فقد وجدنا من المستشرقين من شهد بجدوى عمل النحاة ومكانته . يقول يوهان فك (Yohan Fuk)[2]: "لقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب في جهد لا يعرف الكلل ، وتضحية جديرة بالإعجاب وبعرض اللغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها .. حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد". ومن ناحية أخرى لا ندري هل يقصد الدكتور أنيس باستنكاره الإعراب في صدر الإسلام الكلام المنطوق أم اللغة المكتوبة ، فإذا كان يقصد الثانية فان الكتابة لم ترمز لكل أصوات اللغة كما هو معلوم عنده وعند غيره ، أما إذا كان يقصد اللغة المنطوقة فان الأدلة القائمة على انتشاره – ومنها القرآن الكريمة الذي نزل بلغتهم – أكثر من هذه الروايات التي أشارت إلى اللحن. ذلك الذي يفهم منه – ضمناً – الخروج عن المألوف من كلامهم. ولعله كان من المهم هنا أن يقدم هذا الباحث دليلاً – ولو واحداً – على أن الإعراب لم يكن شائعاً في تلك العصور التي عرفت في تاريخ اللغة بالفصاحة والنقاء. ويقول أنيس بقوله[3]: "ونحن بصدد هذا الذي سموه اللحن بين أمرين: أما أن نسلم بصحة هذه الروايات ، وان كلمة اللحن كانت تعني في الغالب الخطأ الإعرابي ، وحينئذ لا مناص لنا من أن نعد ظاهرة الإعراب من الظواهر التي لا يمكن أن تمتّ للسليقة اللغوية بصلة ، وذلك لأن صاحب اللغة الذي

---

[1] الرد على النحاة : ١٦١.

[2] العربية: ١١٩.

[3] أنيس: ٢٠٢-٢٠٣.

يتكلمها بالسليقة يستحيل عليه الخطأ في ظواهر تلك اللغة دون أن يدرك أنه أخطأ". ويقول[1]: "وعلى هذا يمكننا أن نتصور أن ظاهرة الإعراب لم تكن ظاهرة سليقة في متناول العرب جميعاً كما يقول النحاة. بل كانت من صفات اللغة النموذجية الأدبية و لم تكن من معالم الكلام العربي في أحاديث الناس ولهجات خطابهم". ومعلوم أن تلك الروايات لم تنقل لنا الخطأ النحوي فحسب ، بل نقلت كذلك خلافات لغوية ، فلو أننا ذهبنا مع هذا الرأي لجاز لنا أن نقول: أن اللغة العربية الفصحى لم تكن لغة السليقة لدى العرب ولا من معالم كلامهم. وهذا مما لا يستقيم عقلاً. كما أننا إذا سلمنا جدلاً بهذه اللغة النموذجية – وفي هذا خلاف بين الباحثين – فان الذي نعلمه عنها أنها لم تكن لتبتدع لنفسها أصولا وتصطنع مقاييس ، إنما وحدت ما كان شائعاً على السنة العرب وأسقطت ما لم ترتضيه منها. فهل الإعراب إلا بعض ذلك الذي أبقته ، لما كان قاسماً مشتركاً بين لهجاتها اقتضته ضرورة الفهم والتبيين. ويشير في هذا السياق نفسه إلى "أن المبرد وأمثاله أبوا أباء شديداً حذف حركات الإعراب"[2]. وعندي أن هذا خلط بين حقبتين بينهما بون في الفصاحة ، إذ عصر المبرد مما اختلط فيه اللسان العربي باللسان الأعجمي كما كان عصر إرهاصات لشعوبية وغيرها استدعى من المبرد وأمثاله من علماء التنقية اللغوية كابن قتيبة وثعلب وابن درستويه وغيرهم حرصهم على إبقاء اللغة على فصاحتها الموروثة عن الأوائل ، والإعراب بعض ذلك الإرث المتوارث. ويتناول الدكتور أنيس كلمة "لحن" ويحاول استقراء دلالاتها هادفاً من ذلك إلى إبعادها عن إشارتها إلى الخطأ في الإعراب ، فيذكر من

---

[1] نفسه : ٢٠٣.

[2] نفسه: ٢١٧.

معانيها "الفصاحة ، واللهجة ، والخطأ اللغوي ، والصواب أي من التضاد) ، والغناء وعلى كل انحراف عن المألوف في لغة العرب لحنا ، واستغل النحاة هذا المعنى الجديد وأكثروا منه في كتبهم حتى كاد أن يطغى على المعاني الأخرى"[١].

ويرفض الدكتور أنيس جملة من آراء بعض المستشرقين من أمثال : والين (Wallin) وفليبي (Philippi) ويرى أنهم وجدوا أن من الأسماء العبرية ما ينتهي بما يشبه الفتح ، ومنها ما ينتهي بما يشبه الكسر ، ومنها ما ينتهي بما يشبه الضم ، فربطوا بين هذه النهايات الثلاث وبين تلك الحالات الإعرابية في لغتنا من فتح وكسر وضم وعدّوها آثاراً لظاهرة الإعراب"[٢].

وحين لحظ المستشرقون تماسك اللغة العربية واحتفاظها بجملة من خصائصها القديمة – كالإعراب وعزوا ذلك لانعزالها في جزيرة العرب – والقرآن الكريم عندي سبب أعظم من ذلك – فان الدكتور أنيس يعلق قائلاً[٣]: "لا أكاد أتصور أن العربية وحدها تحتفظ بمثل هذا النظام الإعرابي الدقيق ، ثم يندثر كل هذا في اللغات السامية الأخرى غير مخلف إلا تلك الآثار الضئيلة النادرة التي يلمحها المستشرقون". وهنا نلحظ أن الباحث لم يعرض للغات السامية جميعها ، وهذا ما لاحظه كذلك بعض الباحثين حيث يقول[٤]:" لم يتعرض للإعراب في الأكادية والحبشية والاوجاريتية مع أن هذه اللغات الثلاث ، من أهم اللغات السامية في موضوع الإعراب .. واستأثرت

---

[١] نفسه: ٢٠٧.

[٢] نفسه: ٢١٣.

[٣] نفسه: ٢١٥.

[٤] عبد التواب: ٢٧٤.

العبرية ببحثه في اقل من صفحة". ويقول الأستاذ إبراهيم السامرائي[1]: " وقد رأينا أن اللغات السامية جميعها كانت معربة ثم زال الإعراب في العهود التي تعاقبت عليها". ويقول[2]:"ويكاد يجمع المستشرقون على أن الإعراب ظاهرة سامية ، فالمستشرق الألماني برجستراشر (Bergstraesser) يقول: إن الإعراب سامي الأصل تشترك فيه اللغة الاكدية وفي بعضه اللغة الإثيوبية (الحبشية) ، ونجد آثاراً منه في غيرها". ويرى الأستاذ يوهان فك المستشرق الألماني[3]: "إن حركات الإعراب هي صفة من صفات العربية وسمة من أقدم سماتها اللغوية والتي فقدت في أخواتها الساميات باستثناء البابلية القديمة".

وحين يعرض الدكتور أنيس إلى المقارنة بين إعراب اللغة العربية وإعراب اللغة اللاتينية يخرج بنتيجة يضمنها قوله[4]: "ولعل أهم فرق بين رموز الأسماء في اللاتينية وبين حركاتنا الإعرابية ، أن الرموز اللاتينية لا تسقط مطلقاً في نهاية الأسماء حين الوقف عليها كما حدث غالباً للحركات الإعرابية في لغتنا مما يجعلنا نرجح أن حركاتنا الإعرابية ليست رموزاً لغوية تشير إلى الفاعلية والمفعولية وغير ذلك" ويرى[5] أن "الأصل في كل كلمة هو سكون آخرها سواء في هذا ما يسمى بالمبني أو المعرب إذ يوقف على كليهما بالسكون وتبقى مع هذا أو رغم هذا واضحة الصيغة لم تفقد من معالمها شيئاً أم الذي يحدد معاني الفاعلية والمفعولية ونحو ذلك مما عرض له

---

[1] فقه اللغة : ١٢٢

[2] المصدر السابق: ١١٩ ، نقلاً عن ولفنسون : تاريخ اللغات السامية: ١٥.

[3] العربية: ١٥.

[4] أنيس: ٢١٩.

[5] نفسه: ٢٤٢.

أصحاب الإعراب فمرجعه أمران: أولهما: نظام الجملة العربية والموضع الخاص لكل من هذه المعاني اللغوية في الجملة. وثانيهما: ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات.

وقد وجدت هذه الآراء التي طرحها الدكتور إبراهيم أنيس اعتراضاً من قبل بعض الباحثين ، يقول العقاد[1]: " وإذا قيست قواعد النحو العربي بهذه المقاييس في علم الألسنة فالمزية البينة في هذه القواعد أنها تابعة لأغراض التعبير والدلالة". يقول الدكتور صبحي الصالح[2]: " هذا غلو لا ريب فيه ، فلقد يكون عمل للنحاة شخصي .. ولكن عملهم الأساسي في قواعد الإعراب يظل أسمى من أن يتهم ، وأوثق من أن يجرّح ، فما جمعوا شواهدهم ، إلا من البادية ، موطن الفصاحة الأصيل ، و لم تكن معاييرهم ، التي نادوا بها إلا صورة معبرة عن طبيعة العربية الفصحى ، في بنائها الصوتي ودلالاتها الموحية ، وفي جميع مظاهرها البسيطة والمركبة ، والمقيسة والمسموعة والمستعملة والمهملة والمشتقة والمنحوتة". ويقول الدكتور على عبدِ الواحد وافي[3]: "إن في رسم المصحف العثماني نفسه — مع تجرده من الاعجام والشكل — لدليلاً على فساد هذا المذهب" . أما الأستاذ السامرائي فيقول[4]: "على انه يحلو له أن يتعصب للرأي بشكل يخيل للقارئ انه المبدع الأول والمعيد في هذا القول ، وكأنه لم يكن هناك في القرن الثاني الهجري رجل اسمه (قطرب) ، وهذا الرأي في جملته غريب وقد انفرد فيه صاحبه و لم يؤيده فيه إلا الدكتور إبراهيم أنيس ، بعد أكثر من احد عشر قرناً. ووجه الخطل في هذا الرأي أن العربية كانت معربة منذ أقدم العصور ،

---

[1] أشتات مجتمعات في اللغة والأدب: ١٢.

[2] صبحي الصالح: ١٢٦-١٢٧

[3] فقه اللغة: ٢٠٩.

[4] السامرائي: ١٢١.

والنصوص شاهدة على ذلك وقد كان هذا الإعراب سهلاً على الألسنة ثم ثقل وصعب حين فسدت الطبائع العربية وفشا اللحن" . وكتب الدكتور رمضان عبد التواب عدة صفحات[1] مفنّداً هذه الآراء ومن ذلك انه يرى أن موازين الشعر العربي نفسه لا تقبل نظرية الدكتور أنيس. ويستشهد اخيراً بطائفة من الأخبار التي تدل على فطنة العلماء في العصور الأولى إلى هذه الحركات الإعرابية ومدلولها وعيبهم من يحيد عنها.

أما المستشرقون من هذا الفريق فمنهم من كان يرى "إن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعد الإعراب لم تكن مراعاة إلا في اللغة الفصيحة الأدبية أما لغة التخاطب فلم تكن معربة"[2]. ويرى المستشرق باول كاليه (Paule Kahle) فيما ينقله عنه صاحب كتاب (فصول في فقه العربية) [3]"إن النص القرآني الخالي من الضبط يعكس بوضوح اللغة العربية التي كانت تتكلم في مكة غير أن العرب كانوا يعدون اللغة البدوية نموذجاً للنطق الصحيح .. بدأت في العواصم الإسلامية في ذلك العصر المبكر في الكوفة والبصرة والمدينة ومكة – دراسة نشيطة للشعر البدوي فكان الرجال المهتمون بهذا النمط من اللغة العربية يذهبون إلى جيرانهم من البدو ويجمعون ما أمكنهم من أشعارهم ... وقد اتخذت المادة التي جمعت بهذه الطريقة اساساً للعربية النموذجية التي أبدعها النحويون ، ثم حذيت لغة القرآن على نحوها ومع ذلك لم تغير كتابة المصحف". وواضح من هذا النص أنه يهدف إلى جعل اللغة التي نزل بها القرآن

---

[1] راجع: عبد التواب: ٣٧١ وما بعدها.

[2] راجع: وافي: ١٣٠.

[3] ٣٧٨.

الكريم لغة عامية خالية من الضبط ، أقل مستوى في الفصاحة لأن القرآن نزل في الحضر والفصاحة كما يرى في البدو حتى في هذا الزمن المبكر الذي عرف فيه المجتمع كله بالفصاحة. كما يفهم منه أن لغة القرآن الكريم هذه قد تم تغييرها فيما بعد لتحذو حذو اللغة النموذجية المنضبطة بصنع النحاة. وهذا رأي افتراضي لا يسنده الواقع ولا الحقائق التاريخية التي تشير إلى أن القرآن الكريم نزل على العرب وهم في أوج فصاحتهم متحدياً إياهم ، وان النبي صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب ، وكذلك صحابته (رضوان الله عليهم) ، والقرآن الكريم كان يمثل الصورة الفصيحة للغة في أرقى مستوياتها مما بلغ إليه اللسان العربي الفصيح وما لم يبلغ وظل مادة للسماع والقياس إلى جانب اللغة في مظانها الفصيحة و لم يتم تفصيحه بأثر رجعي كما يوحي كلام هذا المستشرق. بل أن من يقول بهذه اللغة النموذجية من عرب ومستشرقين يذهبون إلى تكوّنها ونضجها قبيل الإسلام وليس في العصر العباسي بحسب هذه المقالة[1]. وفي هذا يقول الدكتور صبحي الصالح[2]: "إن في رسم المصحف العثماني نفسه ، مع تجرده من الاعجام والشكل ، لدليلاً على فساد هذا المذهب – وذلك أن المصحف العثماني يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنين..) وعلامات إعراب المنصوب (رسولا ، شهيدا ، بصيرا) وهلم جرا. ولا شك أن المصحف العثماني قد دون في عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب إليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الإعراب". فقد دون المصحف وضبط بالتشكيل في القرن الأول ، بينما جهود علماء النحو في تأسيس

---

[1] عبد الله سويد وعبد الله مصطفى :١٠٩. وانظر في اللهجات العربية : الدكتور إبراهيم أنيس: ٢١٧.

[2] ١٢٦

علمهم لم تبدأ إلا في منتصف القرن الثاني[1]. كما أن الشواهد تشير إلى أن النحاة كانوا يتخذون القرآن الكريم مددا لقواعدهم وليس العكس ، لتوارت لفظه المنضبط سماعاً ، و لم يحتجوا بالحديث الشريف لأنه روي بالمعنى ، إذ لم يكتب و لم يدون إلا في المائة الثانية للهجرة[2].

ويذهب مستشرق آخر هو كارل فوللرز (Karl Vollers) إلى "أن النص الأصلي للقرآن قد كتب بإحدى اللهجات الشعبية التي كانت سائدة في الحجاز والتي لا توجد فيها كما لا يوجد في غيرها تلك النهايات المسماة بالإعراب ، وانه انتقل إلى هذا النص فيما بعد الشكل الأدبي للغة العربية الذي هو عليه الآن. وهو يرى أن العربية الفصحى التي رواها لنا النحويون العرب والتي توجد في القرآن كما احتفظ بها الشعر في موازينه — هذه العربية يراها (فوللرز) مصنوعة. وهو ينكر على الإطلاق أن تكون هذه اللغة كانت حية في مكة على عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يشك أن يكون البدو الذين خرج من بينهم الشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة"[3]. ومكمن التناقض والتحامل في هذا الرأي أن ما يصفه بإحدى اللهجات الشعبية وهو يعني لهجة قريش لم تكن لهجة شعبية بمفهومنا المعاصر لهذا المصطلح ، إنما كانت لهجة تمثل قدراً عظيماً من الفصاحة أهّلها لكي تصبح قبيل الإسلام لغة لجميع العرب ، وهم من لا يقدح في فصاحتهم آنذاك. ويكفي هنا قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا من قريش ، ونشأت في بني سعد فأنى لي اللحن"[4]. كما أن القائمين على علوم القرآن

---

[1] راجع : البحث اللغوي عند العرب: ٦٠.

[2] حسنين ، صلاح الدين: ٥٢.

[3] عبد التواب : ٢٧٧-٢٧٨.

[4] المزهر : ٢/٢٩٧.

يحدثوننا بان نطق القرآن لم يغير في سائر حركاته وحروفه وألفاظه وتراكيبه ودلالته على الصورة المسموعة عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته (رضوان الله عليهم) الذين رووا عنه صلى الله عليه وسلم. ويؤيد هذا النقل المتواتر بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم على نفس الهيئة التي سمعت عنه صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم كان الاهتمام بالنص القرآني حرفاً حرفا ، من قبل القراء مستنداً من كونه المشافهة هي الأصل في تلقيه ونقله ، وان ما حدث لاحقاً ما هو إلا ضبط لكتابته لأحكام صورة نطقه المتواترة ، وليس تغييراً في بنية نحوية أو لغوية أو دلالية. بل أن القرآن شهد من قبل العلماء جهوداً نحوية ولغوية في جعل الكتابة تمثل هذه الصورة المنطوقة ، وخبر أبي الأسود الدؤلي في نقط الإعراب شائع في أمهات كتب اللغة[1]. يقول بروكلمان (Brokelman)[2] في معرض ذكره خط المصحف: "وعندما أضيف الاعجام ورموز الكتابة الأخرى ، في وقت متأخر ، إلى الخط المؤلف من رموز الأصوات الصامتة وحدها ، وضعته هذه الأشياء على حسب قواعد العربية الفصحى". يقول الأستاذ إبراهيم السامرائي[3] "اللغة المعربة كانت لغة العرب في الجاهلية ولغة القرآن التي عمت العرب جميعاً وأخضعت لها لهجات الإقليم و لم تكن لغة القرآن مهيأة للقراءة والكتابة فحسب بل كانت لغة يستعملها الناس على اختلاف طبقاتهم وكتب الأدب والأخبار تؤيد هذا" . وحسبك قوله عز وجل "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه" دليلاً على فصاحة اللغة التي نزل بها وامتثالها لظاهرة الإعراب.

---

[1] راجع الفهرست لابن النديم: ٤٠.

[2] فقه اللغات السامية: ٣٠.

[3] السامرائي: ١٢٤.

ونجد كثيراً من المستشرقين يرفضون مثل هذه الآراء الغريبة ، ويدافعون عن أصالة الإعراب في اللغة العربية ، فهذا نولدكة (Noldeke) يرى " انه من غير المعقول أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد استخدم القرآن لغة تخالف كل المخالفة تلك اللغة التي كانت شائعة في مكة آنذاك ، وان يكون قد اعتنى بالإعراب هذه العناية وقومه لا يستخدمون الإعراب في كلامهم ... ولو كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم أو احد معاصريه من المؤمنين قد نطق بالقرآن دون إعراب لكان من غير الممكن أن تضيع الروايات الخاصة بذلك دون أن يبقى لنا آثار منها"[1]. ثم يقرر بقوله[2]:"من الخطأ الشنيع الاعتقاد بان اللغة الحية في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فيها إعراب ، فان العلماء في عصر هارون الرشيد قد وجدوا الإعراب بكل دقائقه لدى البدو". ويقول المستشرق يوهان فك[3] " قد احتفظت العربية الفصحى ، في ظاهرة التصرف الإعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية ، التي فقدتها جميع اللغات السامية ... فأشعار عرب البادية – قبل الإسلام وفي عصوره الأولى – ترينا علامات الإعراب مطردة ، كاملة السلطان ، كما أن الحقيقة الثابتة ، أن النحويين العرب كانوا – حتى القرن الرابع الهجري – يختلفون إلى عرب البادية ، ليدرسوا لغتهم ، تدل على أن التصرف الإعرابي ، كان في أوج ازدهاره آنذاك ، بل لا نزال حتى اليوم نجد في بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداة ظواهر الإعراب".

ثانيا– اللغة الفصحى والتعلم

---

[1] عبد التواب: ٣٨٠.

[2] المصدر السابق: ٣٨١.

[3] العربية: ١٥

إذا كان الهجوم السابق على الإعراب قد تمثل لنا في حقيقة أمره حصاراً على اللغة الفصحى ، وعقبة دون نموها وانتشارها في المحيط الاجتماعي والتعليمي ، فان من الدعوات ما طالبت صراحة بتقويض هذه اللغة الفصحى ، في مجال التعليم وإفساح المجال للهجات العامية لتحلّ محلّها أو تمتزج بها بعد تهجين الثانية. ونسجل في هذا الموضع اثنتين من تلك الدعوات ، أحداهما للأستاذ احمد أمين والثانية للمستشرق ستتكيفتش (Setetkfetsh) ، وسنلمح إليهما ، إذ لا يتسع المقام لغير الإشارة والإلماح.

أما الأستاذ احمد أمين فان الذي يبدو من أمره انه خشي ركون المتعلمين وغيرهم ، إلى العاميات وتنكّب نهج الفصحى ، إذ يرى أن الفصحى غدت بإعرابها وضخامة ألفاظها في نظر الكثيرين ضرباً من التكلف والتعقيد ، ونأت عن تمثيل واقعهم والتعبير عنه ، فاتخذ سبيله إلى الإصلاح أن يدعو إلى تحرير اللغة العربية الفصحى من الإعراب والألفاظ الضخمة ومزجها بالعامية ، تيسيراً لأولئك النائين والمستصعبين حتى يصحبوها ، بدلاً من عامية محضة. فهو يقول[1]: " أهم فرق بين اللغة العربية الفصحى واهم صعوبة في انتشار اللغة الفصحى — في نظري — الإعراب ، لقد فشلنا في تعليمه حتى للخاصة والمثقفين ، فهذا متخرج الجامعة قد صرف تسع سنوات على الأقل في المدارس الابتدائية والثانوية يتعلم النحو ، ثم عدداً من السنين في الجامعة ، ومع ذلك قلّ جداً من يستطيع أن يكتب صفحة خالية من الخطأ النحوي ، ومثلهم المثقفون ثقافة عامة ، ومن قرءوا لأنفسهم كثيراً وكتبوا كثيراً ، فكيف نطمع إلى أن نصل إلى نتيجة باهرة إذا أردنا نشر تعليم اللغة في أوساط العامة". ولعلاج هذه

---

[1] ستتكيفتش: ١٩٠ : نقلاً عن: مستقبل الأدب العربي لأحمد أمين: ٦.

الحالة يقترح احمد أمين اصطناع لغة عربية "خالية من الإعراب ، ومجردة من الألفاظ الضخمة ، ومستعملة للكلمات العامية التي هي أيضا عربية ، ومجردة من خرفشة العامية ، وهذه اللغة الجديدة ستكون بحق وسطاً بين العامية والفصحى ، وهي التي يجب أن نعتمد عليها في نشر التعليم بين العامة ، وبذلك نستطيع أن نقارب بين العامية والفصحى ، ونسهل تعليم العربية ، وبذلك نستطيع أن نوصل الأدب العربي إلى سواد الناس ، ولتبق اللغة العربية الفصحى لغة الخاصة يكتبون بها للمتخصصين ، ويقرءون بها التراث القديم وينتفعون به ، وينقلون منه ما شاءوا إلى اللغة الجديدة لنفع الجمهور. وستكون هذه اللغة الجديدة صالحة لان يصاغ بها الفن الأدبي على أشكاله وأنواعه"[1].

أما المستشرق (ستتكيفتش) فيرى[2] أن "المناهج التي تبدأ من بدهيات أكثر واقعية هي المناهج المثيرة للاهتمام إلى حد بعيد ، ومن هذه البدهيات : ما يعترف باللهجات العامية التي تسيطر – حتى عهد قريب جداً – على لغة الكلام وثمة بديهة أخرى : اختفاء معظم الأهداف العلمية للإعراب أو علامات الضبط ، حتى أنها لا تؤخذ في الاعتبار في القراءة العادية". وهذا رأي بيّن الخطل ، إذ لم يقل بمثله – فيما اعلم – احد من التربويين الذي يحتكمون إلى منطق العلم التربوي ، ولا أولئك المخلصين لصلاح هذه الأمة وتقدمها ، فالعامية لم تمثل يوماً حلاً في مجال التعليم ، إنما هي مدعاة – أبدا – لتمزيق الأمة اجتماعياً وفكرياً خاصة إذا اتخذت من مناهج

---

[1] المصدر السابق: ١٩١.

[2] نفسه: ١٨٨.

التعليم مدخلاً لها ؛ إذ المناهج هي الأداة الفاعلة في صياغة كل امة وتشكيلها الفكري وفق منطق لها.

أما الأستاذ احمد أمين فان الذي يبدو لي من أمره انه يهدف إلى اصطناع ازدواجية لغوية في مجال التعليم ، توظف إحداها في مجال البحث العلمي بين طبقة المثقفين والباحثين ، بينما توظف الثانية للتعليم في مستواه العام ، وهذا رأي يتنافى وطبيعة التطور المعهود في مجال التعليم ؛ فكيف يضمن لهذه المناهج التعليمية أن تستمر في تخريج مثقفين وباحثين ذوي شأن وهو يريد للتعليم العام أن يصطنع لغة عربية هجين خالية من الإعراب وجزل الألفاظ وفخمها. وهذه اللغة ستتراجع – قطعا – يوما بعد يوم آخر في صراعها الحتمي مع عامية التخاطب التي تمثل المستوى الثالث والتي هي – بالطبع – تتباين بتباين بيئاتها فتفقد – تدريجياً – أهم وظيفة لها ما خلا منها تعريف للغة ، كقول بعضهم[1]: "اللغة نظام اعتباطي لرموز صوتية تستخدم لتبادل الأفكار والمشاعر ، بين أعضاء جماعة لغوية متجانسة" وذلك – دون شك – هو دور العربية الفصحى وليس العربية الهجين التي لا تستبين معالمها إلا في بيئتها المحدودة. ولذلك فان هذا الرأي يعتبر – في تقديري – تضحية بأهم ما يميز اللغة العربية ويقوّمها وهو الإعراب وفصاحة الكلم. بسبب من خطأ يقع فيه هذا أو صعوبة يحسها ذاك. ولما كان ذلك أمر يعرض في سائر اللغات فليس له أن يجعل العربية بدعا بينها. ولا ادري كيف يفكر الأستاذ احمد أمين في هذه الازدواجية اللغوية ، وهي التي شكا منها أنصار رأيه هذا ، واعتبروها مرضاً ميئوس البرء منه ، يقول الدكتور

---

[1] الخولي ، محمد علي: ١٥.

عبده الراجحي[1] :" كثر الكلام منذ ذلك الوقت – يقصد أواخر الأربعينات – عن الازدواجية اللغوية ، التي يعاني منها العرب فهم يعيشون بلغة (أو لغات) ويطلب منهم أن يتعلموا وان يكتبوا بلغة أخرى ، وقد وجد هذا الكلام مناخاً ممهداً لأسباب كثيرة ، أهمها ، حالة تعليم العربية في العقود الأخيرة ، وبدأ الاقتناع بهذا الزعم يقوى عند الكثيرين إلى الحد الذي يتصورون أن الازدواجية مرض (ميئوس) البرء منه ، وأنها سبب مباشر في تخلف العرب ، وفي انتشار الأمية بينهم". كما تبين أيضا وجه آخر للخلل في هذا الرأي ، إذ يجعل الإعراب وجهة رئيسية للحل ، ومدخلاً صالحاً له. ونحن نعترف بما يجده بعض متعلمي هذه اللغة من مشقة ، الأمر الذي قد يتطلب منهم أن ينفقوا معظم سنوات دراستهم في تعلم اللغة العربية ثم لا يظفرون من بعد ذلك إلا بما يكادون يتبلّغون به. ومرد أسباب ذلك – عندي – لا يمكن في إعراب اللغة وضخامة ألفاظها وفصاحتها ، إنما في طرائقنا في تلقى اللغة ، ونظرتنا إلى ظاهرة الإعراب . ويمكن أن أجمل الرأي فيهما فيما يلي:

أ- منهج تلقي اللغة وتعلمها

إن المقصود هنا بتعلم اللغة ليس اجترارها في مواقف الاختبارات ، ولا ترديد محفوظها لحلية لفظية وما شابه ذلك ، إنما المقصود هو الوصول باللغة لان تجري بها نفس المتعلم على سجيتها وطبعها ، ويتفاعل بها ذهنه فيكتسب قدرات في التصرف فيها. ولذلك اتفق علماء النفس وعلماء التربية على أن القدرة العقلية ووصولها إلى

---

[1] علم اللغة التطبيقي: ٤٦.

مستوى معين ، أساس في العملية التربوية ولذلك كان التعلم في أسهل تعاريفه عندهم عبارة عن "عمليات تغيير تحدث في الفرد"[١].

في هذا المقام نبدأ بالمتعلم للغة في مراحل تلقيه المبكرة ، فقد تصمم المناهج تصميماً علمياً سديداً ، للمراحل المبكرة ولكن قد لا تجد تنفيذاً يتفق كلية وجوهر أهدافها وغاياتها التعليمية ، كالميل لانتهاج العامية في أسلوب التدريس، أو الجنوح إلى تسكين أواخر الكلمات نطقاً ، أو الاستعاضة عن قراءة النص أو إقرائه بسرده حكائياً بلغة ممتزجة ، أو قلة الجانب التطبيقي أو عدمه إلى غير ذلك. وبسبب كل ذلك يفقد التلميذ فرصة لتعويد لسانه على النطق السليم ، وتدريب عقله على استجلاء المعاني ، وتنمية ملكة التذوق لأساليب اللغة والتدرب عليها وهلم جرا.

وفي مراحل التعليم المتقدمة تزداد أهمية النصوص الجيدة وأهمية الإكثار من الاطلاع عليها وتذوقها وتمثّلها ، تلك النصوص التي تكتسب جودتها من تنكب طريق التوعر والتقعّر في الكلام وتجنب وحشي اللفظ وغريبه ، بحيث تأتي اللغة معبرة بسلاسة عن روح عصرها ، ممتثلة لذائقته الأسلوبية ، بعيداً عن الأخيلة والقوالب الجاهزة والتي لا تخلو- غالبا- من فجاجة وابتذال. وبهذا نستطيع اكتساب اللغة دون عنت والتعلم بها ثم العودة بها لغة لمعظم الحديث اليومي ، وعلمي أن هذا رأي يتصل تأييده منذ بداية النهضة إلى يومنا بين معظم المهتمين بأمر اللغة العربية والحادبين على إتقان تعلمها[٢]. ولذلك نجد من التربويين [٣] من يقول: "إن التدريس في مفهومه

---

[1] [illegible] ، محمد صلاح الدين: ١٩٥.

[2] راجع نفوسة زكريا : ١٩٧ وما بعدها.

[3] مجاور ، محمد صلاح الدين: ٦٧٧.

الحديث ، ليس خطوات تتبع ، ولا نظاما ثابت التنفيذ والإعداد، ولكنه في أساسه عملية معرفة ، طابعها حرية المعلم... فالنحو أو القواعد يبدأ في السنوات الأربعة الأولى بالتركيز على الجملة الكاملة، ذات الاسم والحدث، وذات ظروف الزمان والمكان، وذات السبب، وربما اتسعت دائرتها لتكشف عن الصفة والحال أو نحو ذلك. وكل ذلك في إطار من التدريب وعرض الأساليب واستعمال النماذج، ويكون هذا من خلال القراءة والتعبير، والكتابة دون التعرض لمصطلحات أو مفاهيم أو قوانين".

ب- وظيفة الإعراب

أما الإعراب فهو أداة تستخدمها اللغة لتؤدي دوراً وظيفياً لمفرداتها في ثنايا التراكيب ، فهو جانب من الفقه اللغوي ، لا يمثل كل الفصاحة اللغوية ، كما لا يقوم — بالطبع — بديلاً عنها . ولكن ألمت به في مساره عبر التاريخ آفتان جعلتا الجدل يحتدم حوله ؛ وتنكبّ عليه الدراسات.

فإحداهما ؛ قديمة تمثلت فيما قوبلت به هذه الظاهرة –السليقية — بتعمّل وتكلف من قبل النحاة المؤسسين ومن جاء من بعدهم ، فيما حشدوه في أبواب النحو من علل وتأويلات ، أي مزجهم بين قواعد النحو وما يمكن أن نسميه فلسفة العلم ، التي هي أجدر بأن يخوض فيها العلماء لا المتعلمون.

وثانيتهما ؛ تلك النظرة الحائرة أمام علم النحو من قبل المتعلمين والتي تنم عن فهم خاطئ في تقديره ؛ وذلك عندما يجعله البعض مظهراً وباباً أوحد للغة العربية ، ودليلا لإسرارها ، فيعتبرون أن إجادته — دون سواه - شرط لإجادة اللغة العربية كتابة وقراءة وتحدثا. بل إن سمات إجادته لدى البعض قد تنطوي لدى آخرين وتمثل

إحساسا زائفًا بإجادة اللغة العربية وإدراك أسرارها. وبسبب من كل ذلك ومن علله وتأويلاته يأتي الفشل في محاولة اكتساب جانبه العملي أو الوظيفي التلقائي ، مثبطاً لهمة ، دافعاً عن عزم ، موحياً بتعقيد معجز ، وتحديا مفحم ، فتشرئب العربية – من ثم – دون طلابها شفًا صعب المرتقي ، وغاية بعيدة المنال.

ولذلك يرى بعض الباحثين [1] ، أن "تعليم اللغة العربية الفصحى وعودتها لغة للحديث ، ينبغي أن يعتمد على التكرار والحفظ لا على القواعد والقوانين ، وأن دراسة النحو ينبغي أن تصبح الوجهة الأخيرة لإصلاح اللغة ، بعد أن يستوعب الطلاب اللغة من خلال عرضها لهم مباشرة وباستمرار ، وبالإكثار من المطالعة في كتب الأدب ، وحفظ الكثير من أشعار العرب وخطبهم ، وأمثالهم ، ونوادرهم ومحاوراتهم ورسائلهم" . وبذلك نستطيع أن نصل إلى تمثّل مفهوم التعلم – كما يراه التربويون – بخلق القدرة والكفاءة العقلية وتنمية فاعلية الذهن ، وهذا يعني أنه بالإضافة إلى النضج الذي يجب أن يراعيه برنامج اللغة ، فانّ مراعاة القدرة العقلية أيضا عند المتعلم أمر كبير الأهمية ، عظيم الخطر"[2]. وهذا أمر لا يتحقق إلا من خلال مداومة الاطلاع على النصوص الجيدة ومحاولة تمثلها.

نتائج البحث

١- إن الإعراب ظاهرة قديمة في اللغة العربية ، ترجع بهذه اللغة إلى أصلها السامي.

---

[1] محمد عرفة: ٩٦ ، وراجع مناقشة هذه الفكرة : نفوسة زكريا : ١٩٧-٢٠٠.

[2] مجاور ، محمد صلاح الدين: ١١٥.

٢- يؤدي الإعراب وظيفة دلالية في اللغة ، وليس الغاية منه طلب الإسراع في النطق أو تفادي التقاء الساكنين في درج الكلام.

٣- يؤدي الإعراب دوراً أساسياً في أساليب اللغة ، حيث يمكّن الأسلوب من أداء أبعاده الدلالية بما يتيحه من حرية التقديم والتأخير وفق مقاصد الكلام.

٤- استطاعت اللغة العربية أن تبلغ غاية النضج والكمال قبيل الإسلام ، في سائر خصائصها ، ومن بينها ظاهرة الإعراب.

٥- اختفاء ظاهرة الإعراب في اللغات السامية ، لا يعني الشك في أصالة هذه الظاهرة في اللغة العربية ، إنما يعني احتفاظ العربية من بين أخواتها الساميّات بهذا الإعراب ، الذي بلغ درجة من النضج والكمال.

٦- إن القول بنزول القران الكريم بلغة عامية خالية من الإعراب ؛ قول لا يسنده منطق ولا يشير إليه نص من النصوص. بل الحقيقة القائمة أن القرآن نزل بصورة فصيحة معربة وانتقل إلينا على ذات الهيئة التي سمع بها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) . وأن ما أضيف إليه لاحقاً ما هو إلا رموز الكتابة ، التي أُريد لها أن تحكم نطق تلك الصيغة المسموعة تواتراً .

٧- لم يصطنع النحاة ظاهرة الإعراب أو يتكلّفوها ، إنما كان عملهم استقراءاً وسماعاً ثم قياساً. أما مظاهر التكلّف التي تبدو في عملهم فلا تدعو إلى إنكار الإعراب جملة ، إذ أن مردها إلى تقديم القياس أحيانا على السماع ، أو تحكيمه لعدم السماع . وقد أوضح الباحثون عدداً من المظاهر السالبة التي تعرضت لها اللغة بسبب ذلك ؛ مثل إنكار بعض اللهجات العربية آنذاك لعدم موافقتها للقياس ، وإهمال كثير من البحوث المهمة من وجهة نظر علم

اللغة الحديث ، كدراسة اللهجات ، والتطور الصوتي ، والدلالي وغيره ،حيث قوّموا عمل النحاة و لم ينكروه عليهم جملة وتفصيلا.

٨- ليس النحو مادة يستحيل إتقان تعلمها ، ولا كان الإعراب عقبة دون تعلم العربية الفصحى ، وعندي أن مرد الإشكال في هاتين الناحيتين يكمن في أساليب تدريس النحو تلك التي تعتمد تقديم المفاهيم والقواعد مجرّدة عن النصوص ، مكتنفة بالعلل والأسباب. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، تلك النظرة إلى النحو أو الإعراب على أساس انه يمثل الوجهة الوحيدة لتعلم اللغة العربية الفصحى.

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم.

٢- ابن خلدون، المقدمة ، القاهرة ، ١٣٢٧ هـــ.

٣- ابن فارس ، الصاحبي، في فقه اللغة ، تحقيق مصطفى الشويمي ، بيروت ، ١٩٦٣.

٤- أنيس ، إبراهيم، في اللهجات العربية ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٩٠

٥- أنيس ، إبراهيم، من أسرار اللغة ، ط٧ ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٩٤.

٦- حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. مطبعة المعارف . ١٣٦٢-١٩٤٣.

٧- حسنين ، صلاح الدين، دراسات في علم اللغة ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٥-١٩٨٤.

٨- الزجاجي، الإيضاح في علل النحو ، تحقيق مازن المبارك. القاهرة ، ١٩٥٩.

٩- السامرائي ، إبراهيم . فقه اللغة المقارن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨.

١٠- ستتكيفتش، العربية الفصحى الحديثة ، ترجمة د/ محمد حسن عبد العزيز.

١١- سويد ، عبد الله . علم اللغة ، ط ١ ، طرابلس ، ١٩٩٣.

١٢- سيبويه، الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٦.

١٣- السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد احمد جاد المولى ، ط ٣ ، دار الحرم للتراث.

١٤- السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو ، حيدر أباد ، ١٩٥٩.

١٥- الفيروزابادي، القاموس المحيط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٥.

١٦- الصالح ، صبحي، دراسات في فقه اللغة ، بيروت ، ١٩٧٠.

١٧- الظاهري ، أبو عبد الرحمن، معركة العامية ، ط ١ ، دار الوطن للطباعة والنشر ، ١٩٩٣.

١٨- عبد التواب، رمضان، فصول في فقه اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٧.

١٩- عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦.

٢٠- العقاد ، عباس محمود، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، دار المعارف بمصر ، ط ٤ (د-ت).

٢١- عمر ، احمد مختار، البحث اللغوي عند العرب ، ط ٢ ، عالم الكتب ، ١٣٩٨-١٩٧٨م.

٢٢- مبارك ، محمد . فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر للطباعة والنشر.

٢٣- مجاور ، محمد صلاح الدين، تدريس اللغة العربية بالمرحلة الابتدائية /٢ . دار القلم الكويت ، ١٣٩٧-١٩٧٧.

٢٤- وافي ، علي عبد الواحد، فقه اللغة ، القاهرة ، ١٩٥٦.

٢٥- يوهان فك، العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة رمضان عبد التواب ، القاهرة ، ١٩٨٠.